قراءة فلسفيّة في واقعنا المعاصر

الآخر في مرآة الأنا
من لعبة الاستعباد والامتلاك، إلى مفهوم الاعتراف

الأب سليم دكّاش اليسوعي

- ١ -

في أيّام النزاعات، أيّام الحروب السوداء، وكذلك في لعبة الاستعباد على مختلف وجوهها، لا بدّ أن يقفز إلى الواجهة واقع الأنا/الذات في مواجهة الآخر في معناه الإنسانيّ. قد يكون من إيجابيّات الحالات الصعبة، الشديدة القساوة، المدمّرة للبشر والحجر، هو بروز «الغيريّة» في أشكالها المتنوّعة، المجرّدة، الخالصة، المتضاربة، المتناقضة، المتعاكسة. إنّه بروز «الغيريّة» و«الآخر» كمقولة ثابتة حاليّة تسكن العالم، يختبرها الإنسان بذاته، على شيء من التفاوت في الوعي، كواقع مباشر، هنا والآن، ولا كأمر رديف هامشيّ، بل كواجب الوجود. إنّه «الآخر».

- ٢ -

مَنْ هو هذا «الغير»؟ من هو الآخر؟ قد يثير السؤال، في مدنيّتنا، الإحراج والقلق، والأفضل ألاّ يُطرح هذا السؤال على السماع لأنّه سؤال ثقيل، في حين أنّه سؤال صحيح أصيل لا مفرّ منه في قاموس المدنيّات. في خيالي، تتعدّد صُوَر الآخر ووجوهه. من هذه الصُوَر والوجوه اخترتُ الآتي:

الآخر (أعني الإنسان) هو جسمٌ، هو شيءٌ من الأشياء في الكون، لا بدّ أن تُضيفَ إليه استطاعةً للإدراك، شبيهة باستطاعتي للفهم والإدراك. هذا الآخر لا يعنيني من قريب أو من بعيد إلاّ لأنّه حالة مماثلة لحالتي. هو حيوانٌ ناطقٌ كباقي الحيوانات الناطقة، له حقله ولي حقلي، على قدر ما أُعطي لي وأُعطي له. إنّه رقم في جملة أرقام وعدد في سلسلة من الأعداد. ولأنّ الآخر هو الشيء (وكلمة شيء هي من أكثر الكلمات عموميّة وإبهامًا في اللغة)، فيصبح من الممكن امتلاكه امتلاك المتاع، كما يمتلك الإنسان الحلال من الأرض والمنزل والأموال والحيوان. وعمليّة الامتلاك، امتلاك الآخر، تقتضي التدجين العاطفيّ والسياسيّ والإيديولوجيّ (على اختلاف أبعاده). ووسائل التدجين أصبحت اليوم متطوّرة مكفولة، والهدف هو ألاّ تبقى مسافة بين الأنا والآخر، وأن يمسي (العمليّة تتمّ فصولها بين صباح ومساء) هذا الآخر موضعًا قريبًا من يدي، أرمي فيه زبالتي وقمامتي ومهملاتي، وأسقط عليه وفيه جهلي وخياناتي.

- ٣ -

إلى هذه الصورة تنضمّ صورة أخرى هي لوحة الآخر/العبد في مواجهة الآخر/السيّد. هو الآخر/العبد الذي مُنِعت عنه قدرة الاختيار (المحطّة الأساسيّة في الإرادة)، كما مُنعت عنه الحرّيّة الفعليّة أو الحرّيّة بالفعل والتحديد. فإرادة السيّد هي التي تحدّد مضمون الحاضر والمستقبل وهي التي تقرّر فعلاً وتحديدًا. فالإمكان الذي يتحوّل إلى فعلٍ وتاريخ هو من حقّ السيّد لا المسود، وحقّ التفكير والجدليّة هو حقّ مُصان لذويّ الإرادة المطلقة وأصحاب القبضة المُنزّلة.

- ٤ -

والآخر هو، بين صُوَر المدنيّة الحاضرة، سالب الذات، الأنا، سارقها. هو يبدأ بتغريب الأنا عن ذاتها، أعني أنّه يجزّئها جزئَين أو أكثر، فتحيا الأنا في حنين مستديم إلى الصميم. هذا الآخر يقتنص فرصة ضعف الذات ووهنها وحاجتها إلى الجديد، فيخطف هذه الذات ليقولبها في قالبه. ومصيبة الذات

هنا أن ضعفها ليس قضيّة عابرة أو أمرًا هامشيًّا سطحيًّا، بل هو ضعف ملازم للصميم عينه. تحاول الذات، أكانت فرديّة أم طبقيّة أو مجتمعيّة، أن تتحرّر من الآخر عندما تنفيه وتتجاهله، إلاّ أنّ ضعف الصميم يرميها ثانيةً في حضن الآخر أو أنّها تحيا في حالة من التشنّج لا يتيح لها الخلق أو الإبداع.

- ٥ -

والآخر هو أيضًا الصديق الحليف، إنّما الحليف ضمن دائرة معيّنة محدودة، هي دائرة الطائفة أو القوم أو العشيرة أو القبيلة. الرابط الذي يشدّ الأنا إلى الآخر في هذه الدائرة هو أوّلاً رابط العصبيّة على مختلف مستوياتها وعناصرها كالدين والإثنية والقوميّة واللغة والخطاب الإيديولوجيّ المنغلق على ذاته والممزوج بكأس العاطفيّة. وهو ثانيًا رابط الخوف على المصير والمستقبل والمنجزات والتاريخ والكيان. وهو ثالثًا رابط العمل الحتميّ من أجل استمراريّة الدائرة كإطار تستطيع فيه الأنا مع حليفها، مع الآخر، أن تبني ذاتها وتحصّنها وتجعلها قادرة على أن تعبّر عن شيء من إمكانيّاتها. فلا خطاب لهذه الأنا إلاّ ضمن هذه الدائرة، أي أنّها بحاجة إلى الآخر البيولوجيّ، لتضمن بقاءها ووجودها وتؤمّن لنفسها الحماية. وهذه الأنا وهذا الآخر وضعا الشريعة اللازمة لاستمراريّة البقاء، لا بل أنّهما حوّلا الكلمة الحقّ إلى مجرّد مدوّنة قانونيّة اجتماعيّة لضمان الحماية وتماسك الجماعة البيولوجيّة. وباسم الحماية والتماسك، نشأت الثقافة الملائمة وثبتت الظواهر من دونيّة الطفل والامرأة والانتقام والجريمة المخفّفة وعدم قدرة الفرد على الاستقلاليّة النسبيّة أو ارتقائه إلى مرتبة الشخص. وأمام ضغط الجماعة، ضغط الأنا، يتحوّل الآخرُ الحليفُ إلى عائق لفرديّته وإلى رافضٍ على الدوام، إذ هو يعبّر عن رغبته بالحرّيّة في الرفض المطلق، في موقفٍ يلتزم بالسلبيّة. هذا الآخر، في فرديّته وموقفه الذي لا يقبل الاختزال، يضع الحجر الأساسيّ لمشروع نزاع مع الأنا التي ترفض العزلة ولا تقبل بأن يكون الآخر سببًا يؤدّي إلى فرط التماسك وإضعاف طرق الحماية. العلاقة، علاقة الأنا بالآخر في هذا الإطار، تسودها الانفعاليّة العميقة على مستوى الجسد والروح والكلمة والحركة والعاطفة والوجه واليدين...

فهذه الانفعاليّة السائدة هي التي تستطيع، قبل غيرها، أن تعيد الآخر إلى «صوابه»، إلى أن يكون الضامن لاستمرار «الأنا».

- ٦ -

والآخر هو أيضًا العدوّ ذو الأسماء والصفات القبيحة المتعدّدة: هو الشيطان، هو الشيطان الأكبر، هو المستكبر، السرطان المتفشّي الذي لا بدّ من اقتلاعه جذريًّا من الأرض والنفوس، هو القاهر المستقوي، الذي يهدّد سلامة «الأنا» ومصيرها. في هذا الآخر بكلّيّته يتجسّد الشرّ، الذي يؤثّر ماديًّا ومعنويًّا في الأنا ويؤلمها ويمنعها من أن تتحقّق وتعبّر عن إمكانيّاتها كافّة. هذا الآخر المهدِّد هو ضرورة وظيفيّة تمكّن الأنا من أن تفسّر واقعها بلسيّاته مجتمعةً، وتمكّنها أيضًا من أن تعلن على الملأ انتصاراتها، لا بل تتيح لها أن تجيّش ما خفي من القدرات لتنتصر على ذاتها. وهذا الآخر، في بشاعته وبربريّته وتجسيده للشرّ، يدفع الأنا إلى تسطير الملاحم والأساطير وإلى استنطاق الخيال بالمنجزات الرائعة الخارقة. ومن الطبيعيّ أن تصرّح الأنا، في هذا المجال، أنّ الانتصار على هذا الآخر المجسِّد للشرّ هو انتصار الحقّ المطلق بعينه، هو انتصار صاحب العدل الأسمى بسيفه على أعدائه، بحيث إنّ الأنا تصبح وليدة هذا الحقّ وربيبته. هذا الآخر هو الجحيم بعينه، ونظرته إلى الأنا هي نظرة جحيميّة، إذ هو يختطف منها عالمها الحميم الذي كوّنته لها، عالم الأمومة والمياه البدائيّة، عالم تطابق الأنا مع ذاتها، عالم الطبيعة والرحم. والآخر الجحيميّ هذا هو المسؤول عن كلّ سيّئة وتخلّف ومرض، وعليه تقع تبعات التدهور والانحطاط.

- ٧ -

إلاّ أنّ هذا الآخر، على بشاعته، يلعب دور الساحر المُغري الفاتن، فيغري الأنا ويجذبها إليه جذبًا مغناطيسيًّا بما لديه، في سلّه، من العجائب والغرائب والاختراعات على أنواعها. وما يستهوي الأنا في هذا السلّ هو من باب الإنتاج السريع للاستهلاك الذي يقضي حاجات الأنا ويسكّن الجوع

والعطش ويثير اللذّة الحاضرة العابرة، ويهدّئ كذلك العنف الرابض في القوى الغريزيّة. هذا الآخر الساحر يقف عند عتبة الأنا متملّقًا، يخاطب الميول والنزعات التي لم تقدر الأنا على استملاكها وتطويعها وتعقيلها. وما أكثر هذه الميول والنزعات الدفينة الغامضة اللاواعية التي يعرفها الآخر المعرفة الجيّدة والتي يغذّيها وينمّيها الخطاب الأسطوريّ الفوقيّ وخوف الدجاجة على فراخها. مهمّة هذا الآخر هو أن يجعل الأنا تتلهّى بالقشور وأن يحوّل أنظارها دومًا نحو الأطراف والهوامش والفتات، فتغدو حضارة الأنا هي حضارة الهامش، وتمشي ثقافتها ثقافة عمياء، إذ إنّ الأنا تصبح مقيّدة بالألاعيب السحريّة المثيرة، فتحيا على مستوى الخيال والمخيّلة والأحلام والأبراج، بدل أن تعقل ذاتها وتبحث عن نقاط الارتكاز في صميم مركزها وعمق كيانها. إنّها الأنا التي تلاشت رغبتها في البحث عن حقيقتها. أو قل إنّ رغبتها تحوّلت إلى ما هو دون الغريزة التي يجب إشباعها. الرغبة في الحرّيّة والفرح والديمقراطيّة والسعادة والسلام سقطت في فخّ الأوهام المستوردة. إنّها الأنا التي انخرس لسانها واندثرت كلمتها، أمام لسان الآخر وكلمته، فارتدّت إلى الوراء ارتداد الكلام الأجوف، تُقنع نفسها بأنّ خطابها وقدرتها على الخطابة لم يموتا. إنّها أنا الخطابة، لا أنا الإرادة والفكر والبناء. إنّها الأنا التي لا تعرف إلاّ التقليد طريقًا إلى العصر الذي تعيش فيه، تقليد الآخر وتقليد الأقدمين، وبين التقليد الأوّل والثاني طريق معبّدة واسعة إلى الفشل الأكيد. والآخر، أمام المشهد، يتفرّج، وفي الوقت عينه، يحلّل شخصيّة المريض الذي توقّفت بعض وظائفه عن العمل، ويصف الدواء تلو الدواء، ذي التركيب المتنوّع المتعدّد العناصر، من جهاز الراديو والحنفيّة الذهبيّة والمساعدات الاجتماعيّة والبوارج الحربيّة. إلاّ أنّ هذا كلّه يزيد مرض الأنا مرضًا وسحر الآخر سحرًا ويجعل حضور الطبيب حضورًا حتميًّا ضروريًّا مستديمًا. دخلت الأنا حضارة الاستهلاك من بابها الواسع: إنّها حضارة الآخر التي تستهلكها، التي تجعلها رهينة.

- ٨ -

والآخر هو الذي دخل في لعبة التسامح. محنة هذه الكلمة أنّها خرجت من الدائرة الروحيّة (حيث يكون الكلّ متساهين ويحيون التسامح كعامل

أساسيّ في الحياة الاجتماعيّة) إلى الدائرة السياسيّة، حيث أصبح التسامح تعبيرًا عن قدرة مَن يمتلك السلطة أن يسمح للآخرين بأن يعيشوا وفق معتقدهم وتفكيرهم. من التسامح، كتعبير عن الاعتراف بواقع الآخر كواقع مختلف بذاته، سقطت «الأنا» في فخ الاصطدام بالآخر كأمر مخيف أو يثير الشبهة، فيتمّ القبول به، ولو مرحليًّا، كأمرٍ واقع، وفق شروط معيّنة لها صفة تشريعيّة نظاميّة أكانت فوقيّة أم وضعيّة. المهمّ هو السيطرة على هذا الآخر وإدارة وجوده بوجه من الوجوه حتّى تتكفّل الظروف والسنون بإيجاد حلٍّ لمصيره. كأنّ وجود هذا الآخر هو وجود بالخطأ فيأتي التسامح حلاً مؤقّتًا لمشكلته.

- ٩ -

وورطة الآخر العظمى تكون في التعميم والتذويب. أنا هو أنت ولا نجاة للآخر، كواقع معنويّ أو كأمر واقع، إلاّ في أن يذوب. الأنا، في حالتها اللاواعية، أكانت فرديّة أم جماعيّة، تنزع نزوعًا إلى امتلاك الآخر وتذويبه. إنّه نزوع أعمى، (لا تكسر عماه إلاّ الوصيّة)، إلى تذويب الآخر بوسيلة من الوسائل البشريّة، من اليدين إلى الفم إلى العينين وصولاً إلى الدماغ. إنّه اختزال الأنا/الآخر، الأنا/أنتِ، الأنا/هو في عموميّة الأنا. الأنا الأمّ، السيِّد، الأمّة، التعصّب، القبيلة، الجماعة...

- ١٠ -

واقع الأنا/الآخر (أنت/هو) لا يستقيم وجوده:
في علاقة تهدف إلى الاختزال،
في إضافة تنزع إلى التعميم والتذويب،
في نسبةٍ ترمي إلى الاستعباد أو الاستبعاد،
في صلةٍ تقود إلى التجانُب السلبيّ،

ففي البدء كانت العلاقة. والعلاقة الحقّ تستقيم وجوديًّا عندما تخرج الأنا من الهُنا والآن إلى حالة تكون واعية فيها لذاتها، هي تلك النقطة الفصل التي تشعر فيها الأنا الشعور الوجوديّ بأن لا وجود لها لذاتها إلاّ من خلال

اعترافها بوجود الآخر لذاته. وهذا الاعتراف هو فعل رغبة، هو فعل كلمة تبدأ بتعرية الأنا من نزعتها العمياء إلى العيش في حالة الاغتراب عن الآخر ومن نزعتها إلى امتلاكه. فالأنا، على سبيل المثال، لا حرّيّة لذاتها ومن أجل ذاتها إلاّ إذا اعترفت بحرّيّة الآخر. فالأنا تصبح الحدّ الأوسط الذي به يتحقّق الآخر أنّه موجود لذاته ومن أجل ذاته، والآخر هو كذلك الحدّ الأوسط الذي به تتحقّق الأنا أنّها موجودة لذاتها ومن أجل ذاتها. وهكذا يعترف كلّ واحد منهما أمام الآخر بأنّ الأنا تعترف بالآخر والآخر يعترف بالأنا. فالأنا الناضجة الواعية لذاتها لا وجود لها إلاّ من خلال الآخر الذي يعترف بها. ويمكن في هذا الإطار أن تتبادل الأدوار: فالأنا قد تكون في موقع الآخر، وكذلك قد يكون الآخر في موقع الأنا.

العلاقة هي الشراكة الحقّ في تبادل الاعتراف بأنّ الحياة هي عطاء.

صَدَرَ عن دار المشرق

Bibliotheca Arabica Scholasticorum

مكتبة الفلاسفة العرب

لموريس بويج اليسوعي

- ابن رشد، تلخيص كتاب المقولات،
  طبعة ثانية، ٢٢٦ صفحة، ١٩٨٤

- الفارابي، رسالة في العقل،
  طبعة ثانية، ٢٢٦ صفحة، ١٩٨٤

- ابن رشد، تفسير ما بعد الطبيعة،
  في أربعة مجلدات، طبعة ثالثة، ٢٣٣٢ ص، ١٩٨٩

- ابن رشد، كتاب تهافت التهافت،
  طبعة ثانية، ٦٨٠ صفحة، ١٩٨٧